الصد عن سبيل الله

عناصر الموضوع

مفهوم الصد عن سبيل الله	٣٥٦
الصد عن سبيل الله في الاستعمال القرآني	٣٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٥٨
دوافع الصد عن سبيل الله ووسائله	٣٦٠
مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى	٣٦٧
علاج القرآن للصد عن سبيل الله	٣٧٥
جزاء الصد عن سبيل الله وآثاره	٣٨١

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الصد عن سبيل الله

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «صد: الصاد والدال معظم بابه يئول إلى إعراضٍ وعدولٍ، فالصد: الإعراض، يقال: صد يصد، وهو ميلٌ إلى أحد الجانبين، ثم تقول: صددت فلانًا عن الأمر، إذا عدلته عنه»(١).

فـ«الصد: هو العدول عن الشيء عن قلى، يستعمل لازمًا بمعنى الانصراف والامتناع ومتعديًا بمعنى الصرف والمنع الذي عنه الانصراف والامتناع»(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، فالصد في المعنى الاصطلاحي: المنع بالإغراء الصارف عن الأمر(٣).

قال الراغب: «يكون انصرافًا عن الشيء وامتناعًا عنه، وقد يكون صرفًا ومنعًا»(٤).

فالصد عن سبيل الله: الإعراض والعدول والصرف والمنع عن طريق معرفة الله الصحيحة، وعبادته القويمة التي ترضيه.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٨٢.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٢٩.بتصرف.
(٣) التوقيف على مهمات التعريف ١/ ٢١٣.
(٤) المفردات، الراغب ص٢٧٥.بتصرف.

الصد عن سبيل الله في الاستعمال القرآني

وردت مادة (صدد) في القرآن الكريم (٤٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء:٥٥]
الفعل المضارع	١٧	﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران:٩٩]
المصدر	٣	﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢١٧]

وجاء الصد في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الإعراض: ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] أي: يعرضون.

الثاني: المنع: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥] أي: يمنعون الناس من الإيمان.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٦٩١-٦٩٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٠٦.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ المنع:

المنع لغة:

المنع: أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده[١].

المنع اصطلاحًا:

المنع ما لأجله يتعذر الفعل على القادر[٢].

الصلة بين الصد والمنع:

إن الصد: هو المنع عن قصد الشيء خاصة، والمنع: يكون في ذلك وغيره، ألا ترى أنه يقال: منع الحائط عن الميل، ولا يقال: صده عن الميل؛ لأن الحائط لا قصد له، ويقولون: صدني عن لقائك، يريد عن قصد لقائك[٣].

٢ الحصر:

الحصر لغة:

هو الجمع والحبس والمنع[٤].

الحصر اصطلاحًا:

الحبس مع التضييق[٥].

الصلة بين الصد والحصر:

هما بمعنى المنع، لكن اصطلح الفقهاء بتسمية الممنوع عن الحج بالمرض محصورًا، والممنوع بالعدو مصدودًا[٦].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص١١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٣١١.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٧٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٩٠.
(٦) انظر: المصدر السابق.

٣ الإعراض:

الإعراض لغة:

أعرض عنه إعراضًا: صد، وولاه ظهره[١].

الإعراض اصطلاحًا:

الانصراف عن شيء[٢].

الصلة بين الصد والإعراض:

الصد: الإعراض وفيه صرف ودفع، أما الإعراض فيكون انصرافًا عن الشيء دون صرف ودفع.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٨/ ٤٠٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٥.

Made searchable using ScribeTools.com

دوافع الصد عن سبيل الله ووسائله

للصد عن سبيل الله في القرآن دوافع ووسائل نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الكفر والمعتقدات الباطلة:

من دوافع الصد عن سبيل الله الكفر، قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

قال ابن عاشور رحمه الله: «أي: صدها معبودها من دون الله، وما كانت تعبده هو الشمس، وفي ذكر فعل الكون (كانت) مرتين في ما كانت تعبد، وإنها كانت من قومٍ كافرين دلالةٌ على تمكنها من عبادة الشمس، وكان ذلك التمكن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشرك منطبعٌ في نفسها بالوراثة، فالكفر قد أحاط بها بتغلغله في نفسها، وبنشأتها عليه، وبكونها بين قومٍ كافرين، فمن أين يخلص إليها الهدى والإيمان؟»[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

أي: «من الشرك والتكذيب»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «قرأ أهل الكوفة (وصد) على البناء للمفعول، حملًا على (زين)، وقرأه الباقون (وصد) بفتح الصاد، ويحتمل معنيين:

أحدهما: أعرض، فيكون لازمًا.

والثاني: يكون صد ومنع غيره، فيكون متعديًا، والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان»[3].

ومن دوافع الصد عن سبيل الله: المعتقدات الباطلة، قال تعالى على لسان من صدهم تقليد الآباء في المعتقدات الباطلة عن عبادة الله في ردهم على دعوة الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا الاعتقاد الباطل قاله المعرضون عن دعوة الأنبياء، قالته ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وقال أصحاب مدين لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

وقالت عاد لهود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقد «أخذ بعض أهل العلم من هذه

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٧٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٤.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٦٣.

الآيات الكريمات منع التقليد الأعمى»[(١)].

وجاء هذا المعنى في وصف رسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على لسان أبي سفيان بن حرب في سؤال هرقل له، فيما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: **قال هرقل: (فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا)**[(٢)].

وتلك هي الآفة التي تسلطت على عقول كثير من ذي العقول فأفسدتها، وأضلتها عن سواء السبيل، وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى طلب التحرر من موروثات الآباء والأجداد، وأن يعيد بناء عقله -متى بلغ الرشد- على البحث والنظر، فما رآه صالحًا قبله، وما وجده فاسدًا دفعه وتخلى عنه.

ثانيًا: تزيين الشيطان الأعمال السيئة لهم:

قال تعالى محذرًا عباده من الشيطان وعداوته: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الزخرف: ٦٢].

«يقول جل ثناؤه: ولا يعدلنكم الشيطان عن طاعتي فيما آمركم وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا، إن الشيطان لكم عدوٌّ يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، ويصدكم عن قصد السبيل؛ ليوردكم المهالك، مبينٌ قد أبان لكم عداوته، بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، وإدلائه بالغرور حتى أخرجه من الجنة حسدًا وبغيًا»[(٣)].

قال سيد قطب رحمه الله: «والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم، ومنذ المعركة الأولى في الجنة، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدوًا يقف له بالمرصاد، عن عمد وقصد، وسابق إنذار وإصرار، ثم لا يأخذ حذره، ثم يزيد فيصبح تابعًا لهذا العدو الصريح!

وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر؛ وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة التي تجعل من الإنسان إنسانًا، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٤٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة، ٤/ ٤٥، رقم ٢٩٤١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣٥.

Made searchable using ScribeTools.com

عدوه الشيطان، فينتصر على الشر والخبث والرجس، ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر»[1].

وجعل الله للمعرض عن ذكره شيطانًا قرينًا يغويه جزاء على إعراضه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أي: «وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة، أنهم على الحق والصواب»[2].

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم! حتى يصطدم بالمصير الأليم.

ومن صور تزيين الشيطان: الأعمال السيئة:

- تحسينه للأعمال القبيحة التي قامت بها الأمم الهالكة؛ حتى أعجبوا بها.

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فقد كانت لهؤلاء: «عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى، ولكن الشيطان استهواهم، وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع»[3].

- وتحسينه لقوة قريش في نفسها؛ حتى خرجت بطرًا ورياءً؛ ليمنعوا الناس عن الدخول في دين الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

قال البغوي رحمه الله: «نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدرٍ، ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني**). قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريشٍ: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٠٥.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٥.

الله فارجعوا، فقال أبو جهلٍ: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا -وكان موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوقٌ كل عامٍ- فنقيم ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها، فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية، والحسبة في نصر دينه، ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم»[(١)].

وقال صاحب المنار رحمه الله: «امتثلوا ما أمرتم به من الفضائل، وانتهوا عما نهيتم من الرذائل، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوةٍ ونعمٍ لم يستحقوها، أو كفروا نعمة الله -مرائين للناس بها؛ ليعجبوا بهم، ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والمنعة، ويصدون عن سبيل الله، أي: والحال أنهم يصدون بخروجهم عن سبيل الله -وهو الإسلام- بحمل الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإعراض عن تبليغ دعوته، وتعذيب من أجابها إذا لم يكن له من يمنعهم ويحميهم من قرابةٍ، أو حلفٍ أو جوارٍ، والله بما يعملون محيطٌ، علمًا وسلطانًا، فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة بمقتضى سنته في ترتيب الجزاء على صفات النفس»[(٢)].

إن ورثة الأنبياء عندما يخرجون للقتال في سبيل الله يخرجون لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

يخرجون لحماية حرمات الناس لا لانتهاكها، ولحماية كراماتهم لا لإذلالهم، ولحماية حرياتهم لا لاستعبادهم.

يخرجون لا للتبطر بنعمة القوة باستخدامها ضد الناس، بل يستخدمونها في حماية الناس، وصون حياتهم.

يخرجون متجردين من حظوظ أنفسهم، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد، وفي إقامة منهجه في الحياة، وفي إعلاء كلمته في الأرض، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه.

ثالثًا: النفاق والتظاهر بالإيمان لحماية مصالحهم:

أخبر سبحانه وتعالى أن المنافقين هم العدو الحقيقي للمسلمين، وحذر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منهم، فقال:

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٦٦.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٢٥.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «هذا اللفظ يقتضي الحصر؛ أي: لا عدو إلا هم؛ ولكن لم يرد هاهنا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم -بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم- أنهم ليسوا بأعدائهم؛ بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم، المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم -أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة، وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر؛ فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

لا على معنى: أنه لا عدو لكم سواهم؛ بل على معنى: أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين»[(١)].

وقال تعالى عن إعراضهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجلٍ من الأنصار، ورجلٍ من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمدٌ، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: في جماعةٍ من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا.

ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك[(٢)].

والحامل لهم على هذا الصدود هو اتباع شهواتهم، وألفتهم للباطل[(٣)].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٥٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٦.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١٨٥.

نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري، وإلا ما كان نفاقًا.

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبيء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله سبحانه أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودًا!»[1].

وقال تعالى عن المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم التي أقسموها سترة ووقاية لهم من المؤاخذة والعذاب، ومنعوا أنفسهم، ومنعوا الناس عن طريق الله المستقيم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[المجادلة: ١٤-١٦].

«أي: جعلوا تصديقهم جنةً من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم، فمنعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وقيل: المعنى: فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام»[2].

ويوحي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾[المنافقون: ٢].

بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عرف عنهم كيد أو تدبير، أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين، كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها؛ ليواصلوا كيدهم، ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم.

رابعًا: الشهوات من المطاعم والمشارب:

قال تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[التوبة: ٩].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال: «أبو سفيان بن حربٍ أطعم حلفاءه، وترك حلفاء محمدٍ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٣٠.

Made searchable using ScribeTools.com

صلى الله عليه وسلم»[1].

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «روي أن أبا سفيان لما أراد حمل قريشٍ وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعامًا استمالهم به، فأجابوه إليه، فهو المراد بالثمن القليل»[2].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

أي: «فبسبب ظلمٍ عظيمٍ حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرمةً على من قبلهم، والطيبات المذكورة هي ما نصه الله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وبصدهم أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وتحريفهم، وقتلهم الأنبياء، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة، وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ مفعولٌ للفعل المذكور، أي: بصدهم ناسًا كثيرًا، أو صفة مصدر محذوف، أي: صدًا كثيرًا»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦٠.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٨.
(٣) فتح القدير ١/ ٦١٨.

خامسًا: كراهية الموت والتشبث بالحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

أي: «الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها، ومعاصي الله فيها على طاعة الله، وما يقربهم إلى رضاه، من الأعمال النافعة في الآخرة، ويمنعون من أراد الإيمان بالله، واتباع رسوله على ما جاء به من عند الله من الإيمان به واتباعه»[4].

يقول سيد قطب رحمه الله: «فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم، لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه، ومن ثم يصدون عن سبيل الله، يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجًا لا استقامة فيها ولا عدالة، وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذٍ فقط يملكون أن يظلموا، وأن يطغوا، وأن يغشوا، وأن

(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٩١.

يخدعوا، وأن يغروا الناس بالفساد، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار.

إن منهج الإيمان ضمانة للحياة، وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة»[1].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٨٧.

مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى

بين القرآن الكريم مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: التشكيك بالنبوات:

قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام ناصحًا قومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبًا عليه السلام كذابٌ، فلا يفتنكم عن دينكم»[2].

فنهاهم شعيب عن ثلاثة أمور:

١. قطع الطريق على المارة لأخذ الأموال.
٢. والصد عن دين الله.
٣. وطلب جعل سبيل الله المستقيمة معوجة مائلة بالأكاذيب والضلالات، وتشويه الحقائق، والشبهات والشكوك الملقاة منكم.

والمراد من الآية أن شعيبًا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاث[3].

ولقد زعم المشركون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس أهلًا لإنزال هذا

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٩٤.

Made searchable using ScribeTools.com

القرآن عليه، لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

أي: «من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ يعنون بعظمه كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعبٍ، وفي مرة بن كعبٍ يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد منافٍ، وعظيم الطائف هو عروة بن مسعودٍ، وقيل: حبيب بن عمرو بن عميرٍ، وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك، وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]»[(١)].

هكذا أهل السوء والضلال يحرصون دائمًا على أن يكون الناس جميعًا على شاكلتهم؛ حتى لا يظهر سوؤهم، ولا ينكشف ضلالهم، وهكذا الشر دائمًا موكل بالخير، يريد أن يشوه معالمه، ويفسد طبيعته؛ ليتوازى معه على كفتي ميزان.

ولكن الله بالغ أمره، فما كان قائمًا على الشر والفساد، مستنبتًا في منابت الضلال، فلا بقاء له، وما كان قائمًا على الحق والخير، مغروسًا في مغارس الهدى والنور، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ثانيًا: السخرية بأهل الإيمان:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين أنهم يسخرون من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

روى البخاري بسنده عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه قال: **(لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدق بشيءٍ كثيرٍ، فقالوا: مرائي، وجاء رجلٌ فتصدق بصاعٍ، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾)**[(٢)].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، ٢/ ١٠٩، رقم ١٤١٥.

قال السعدي رحمه الله: «جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير:

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالًا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفرًا بالله تعالى، وبغضًا للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير فإنه الذي ينبغي إعانته، وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالًا كثيرًا بأنه مراء غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غني عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله -وإن كان غنيًا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧].

وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين؛ ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم»(١).

ثالثًا: منع إقامة الشعائر:

قال تعالى في ذكر السبب الموجب لعذاب المشركين: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٣٤].

«أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي: الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه، والطواف به»(٢).

«فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه، وقد وضعوا على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم فرث الجزور وهو ساجدٌ، فلم يتجرأ أحدٌ على رميه عنه إلا بنته فاطمة رضي الله عنها، ومنعوا أبا بكرٍ من الصلاة، وقراءة القرآن فيه، فبنى لنفسه مسجدًا كان يصلي فيه، ويجهر بالقرآن، فصدوه عن الصلاة فيه أيضًا؛ لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة، فخافوا عليهم أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥.

Made searchable using ScribeTools.com

يهتدوا إلى الإسلام»[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «كان الصد عن المسجد الحرام جريمةً عظيمةً يستحق فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة؛ لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد؛ لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علمًا على توحيد الله، ومأوًى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه لأنهم آمنوا بإلهٍ واحدٍ، صرفٌ له عن كونه علمًا على التوحيد»[2].

رابعًا: منع الهجرة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٧].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن المسيب، (أن صهيبًا أقبل مهاجرًا نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعه نفرٌ من قريش مشركون، فنزل وانتثل[3] كنانته، فقال: يا معشر قريشٍ، قد علمتم أني أرماكم رجلًا بسهمٍ، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهمٍ في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي، ما بقي في يدي منه شيءٌ، ثم شأنكم بعد، وقال: إن شئتم دللتكم على مالي بمكة، وتخلون سبيلي؟ قالوا: فدلنا على مالك بمكة ونخلي عنك، فتعاهدوا على ذلك، فدلهم، وأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فلما رأى رسول الله صهيبًا، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى)[4].

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره رواية أخرى عن أبي عثمان النهدي، عن صهيبٍ، قال: (لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريشٌ: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ربح صهيبٌ، ربح صهيبٌ) مرتين[5].

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٤٦.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٣٣٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٦٩، رقم ١٩٤٠.
والمرفوع منه أخرجه أيضًا الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٣١، رقم ٧٢٩٦، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٥٢، رقم ٥٧٠٦.
(٤) نثل: يقال: نثلت كنانتي نثلاً إذا استخرجت ما فيها من النبل.
انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٨٥٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٢١.
وأخرج نحوه ابن حبان في صحيحه،

قال ابن عاشور رحمه الله: «والذي لا يشح بنفسه في نصرة الحق ينبيء خلقه عن إيثار الحق، والخير على الباطل والفساد»[(١)].

قال صاحب التفسير المنير حفظه الله: «دل التعبير القرآني الموجز: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٠٧].

على حقيقة ثابتة، وهي أن وجود فئة المخلصين بين الناس رحمة عامة للعباد، لا خاصة بهم، فكثيرًا ما ينتفع الناس بعمل المصلحين من دونهم؛ إذ تظهر ثمرات إصلاحهم من بعدهم، وعلى من يبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى في نفع عباده ألا يتهور ويلقي بنفسه في التهلكة، بل عليه أن يكون حكيمًا يقدر الأمور بقدرها؛ إذ ليس المقصود بهذا الشراء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١].

إهانة النفس ولا إذلالها، وإنما المراد دفع الشر، وفعل الخير العام، رأفة بالعباد، وإيثارًا للمصلحة العامة»[(٢)].

وقال تعالى في ذم المشركين الذين منعوا المسلمين من الهجرة في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٍ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

«وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد؛ لأنهم كانوا يأبون ذلك»[(٣)].

وقال الخازن رحمه الله: «أي: بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام»[(٤)].

خامسًا: التخويف من الجهاد:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين أنهم يخوفون المؤمنين من الجهاد في سبيل الله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

عن قتادة رحمه الله: «عن الجهاد والغزو في سبيل الله»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى غزوة تبوك في حرٍ شديدٍ، فقال المنافقون بعضهم لبعضٍ: لا تنفروا في الحر، فقال الله لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا محمد: نار جهنم التي

١٥/ ٥٥٧، رقم ٧٠٨٢، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص١٦٦.

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٤.

(٢) التفسير المنير ٢/ ٢٣١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢١٦.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٥٣.

(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٠.

Made searchable using ScribeTools.com

أعدها الله لمن خالف أمره، وعصى رسوله، أشد حرًا من هذا الحر الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه، يقول: الذي هو أشد حرًا أحرى أن يحذر ويتقى من الذي هو أقلهما أذًى[(١)].

لقد قام المنافقون بصرف الناس عن الجهاد، وخوفوهم بعد الشقة، وحذروهم بأس الروم.

قال سيد قطب رحمه الله: «وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف، والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال»[(٢)].

(١) المصدر السابق ١١/ ٦٠٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٤.

سادسًا: النهي عن الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٥-٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «لا تطعموا محمدًا وأصحابه؛ حتى تصيبهم مجاعةٌ، فيتركوا نبيهم»[(٣)].

فهم يصدون عن سبيل الله بالأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف.

قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧].

«ومن المعروف الذي ينهون عنه الجهاد، وبذل المال في سبيل الله للقتال وغير القتال»[(٤)].

قوله تعالى على لسان المنافقين:

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٦٠.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٠.

﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قولة تجلى فيها خبث الطبع، وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم، يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين، إنها خطة قريش، وهي تقاطع بني هاشم في الشعب؛ لينفضوا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسلموه للمشركين، وهي خطة المنافقين -كما تحكيها هذه الآية- لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع.

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا، أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة.

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله، وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع، ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان من قديم الزمان إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة اليسيرة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٧].

ومن خزائن الله في السموات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!»[(١)].

وما الحصار المفروض على فلسطين -وكذلك على البلاد المسلمة الفقيرة- إلا تنفيذٌ وتحقيقٌ لهذه الوسيلة الخسيسة، والتي يراد بها تركيع المؤمنين المجاهدين، وصرف الشعب الفلسطيني عن التعاون مع المجاهدين، وتثبيطهم عن مجالدة العدو الصهيوني.

سابعًا: الصد عن المساجد:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين والتي استخدموها في صد الناس عن طريق الحق: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «هم أناسٌ من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامرٍ: ابنوا مسجدكم، واستعدوا بما استطعتم من قوةٍ ومن سلاحٍ، فإني ذاهبٌ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٧٩.

Made searchable using ScribeTools.com

إلى قيصر ملك الروم فآتي بجندٍ من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله فيه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]»[1].

«هذا المسجد -مسجد الضرار- الذي اتخذ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيدة للإسلام والمسلمين، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين، وإلا الكفر بالله، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة، الكائدين لها في الظلام، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين».

هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها؛ لتتترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! وتتخذ في صور شتى كثيرة.

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس، وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٧٥.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١١.

علاج القرآن للصد عن سبيل الله

أرشد القرآن الكريم إلى كيفية علاج الصد عن سبيل الله تعالى، وسوف نتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: دحض شبه الصادين عن سبيل الله:

قال تعالى في دحض شبهة المشركين التي عيروا بها المؤمنين في قتلهم ابن الحضرمي في الأشهر الحرم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[البقرة: ٢١٧].

روى الطبراني بسنده عن جندب بن عبد الله: (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بعث رهطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة، فلما ذهب لينطلق بكى صبابة[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس فبعث عليهم عبد الله بن جحش مكانه، وكتب له كتابًا، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: (لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك). فلما قرأ الكتاب استرجع، ثم قال: سمعٌ وطاعةٌ لله ورسوله، فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجبٍ أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجرٌ، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨][2].

قال السعدي رحمه الله: «الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ؛ لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقًا؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم

(١) الصبابة: بالفتح رقة الشوق وحرارته، والصبابة بالضم بقية الماء في الإناء.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٧٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب ما جاء في نسخ العفو عن المشركين، ونسخ النهي عن القتال حتى يقاتلوا، والنهي عن القتال في الشهر الحرام ٩/ ٢٠، رقم ١٧٧٤٥، والطبراني في المعجم الكبير، ٢/ ١٦٢، رقم ١٦٧٠.

Made searchable using ScribeTools.com

كما يجوز في البلد الحرام».

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أمواله، وكان ذلك -على ما قيل- في شهر رجب عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، والتي منها:

- صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام، والبلد الحرام الذي هو بمجرده كافٍ في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!
- إخراج أهل المسجد الحرام وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجوهم منه ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة، في تعييرهم المؤمنين[(١)].

وقال سيد قطب في وصف هؤلاء -وأمثالهم في كل جيل-: «هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزنًا، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين، ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام! ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟

إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا؛ لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه، يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة، ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة!

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٧.

الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!»[1].

إن هؤلاء الذين حكى عنهم القرآن نراهم بأعيننا صباحًا ومساءً في وسائل الإعلام المأجورة لمحاربة كل ما هو إسلامي، يسلطون الضوء على بعض الأخطاء من المسلمين، ويغمضون أعينهم عن صدهم عن سبيل الله بكل وسيلة خسيسة.

ألا فليتعظ هؤلاء مما فعل بأسلافهم، فإنهم ليسوا بمنأى من عقاب الله، وليطمئن المؤمنون المخلصون إلى وعد الله لهم بالنصر، ووعيد الله للمجرمين بالعذاب المهين.

ثانيًا: التحذير من مكائد الشيطان وتزيينه:

أخبر سبحانه في كتابه أن الشيطان توعد بني آدم بتزيين المعاصي والشهوات لهم وإضلالهم عن الطريق المستقيم، قال تعالى على لسان الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

أي: «بسبب ما أغويتني وأضللتني لأزينن لذرية آدم عليه السلام في الأرض، أي: أحبب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجًا، ولأغوينهم أجمعين، أي: كما أغويتني وقدرت علي ذلك ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]»[2].

وقال تعالى محذرًا المؤمنين من وساوس الشيطان وعداوته: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

أي: لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين، فإن شرائع الأنبياء لم تختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنةٍ أو نارٍ[3]، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

لقد حدد الشيطان مكان المعركة وعدته فيها، فمكان المعركة بين الإنسان والشيطان الأرض، وعدته فيها التزيين، تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه.

ألا فليفطن الناس إلى عدة الشيطان؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينًا، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء، فقد يكون

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٠٧.

Made searchable using ScribeTools.com

الشيطان هناك.

ثم حدد -لعنه الله- الفائزين عليه في هذه المعركة، إنهم المخلصون الذين أخلصهم الله لنفسه، واصطفاهم لطاعته، وأرادهم لجنته.

ثالثًا: التحذير من النفاق وبيان عوراته:

قال تعالى محذرًا عباده المؤمنين في سياق الحديث عن المنافقين ووسائلهم في الصد عن سبيل الله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

«يقول الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: هم العدو يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عينٌ لأعدائكم عليكم»(1).

رابعًا: الاستعداد للموت بالإيمان وإحسان العمل:

إن الغافل عن الآخرة وحسابها يسعى في الدنيا سعي الوحوش في البرية، فيصرف نفسه عن الطريق المستقيم الآمن من الهلكة في الدنيا والآخرة؛ وكذلك يصرف غيره؛ لأنه لا يحب الخير لنفسه ولا لغيره، أما إذا تمكن حب الآخرة، من القلب كان حريصًا على كل ما يثقل موازينه في الآخرة، ويرفع درجاته في الجنة، فيفعل الخيرات، ويعاون غيره على فعلها.

ولقد قرن سبحانه بين الصد عن سبيل الله والكفر بالآخرة في مواضع من كتابه؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة أحد، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ثم يصد عن سبيل الله، ويحيد عن نهجه وشرعه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

وقد تكررت في الآية الثانية (هم) «واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة ﴿هُمْ﴾ في قوله: ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ وهو توكيدٌ يفيد تقوي الحكم؛ لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره؛ إشعارًا بما يترقبهم من العقاب المناسب»(2).

فإذا آمن العبد بالآخرة، واستيقن أنه راجع إلى ربه، أعد لذلك العمل الصالح المقبول الذي ينجيه بين يدي مولاه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٥٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٣٤.

قال ابن القيم رحمه الله في شروط العمل الصالح المقبول: «قال الفضيل بن عياض رحمه الله: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا.

فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم»[1].

خامسًا: بيان عاقبة الصادين عن سبيل الله:

قرن سبحانه بين الصد عن سبيل الله والفساد، فكل صاد عن سبيل الله مفسد في الأرض.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وأمرنا الله عز وجل أن ننظر لنتأمل عاقبة المفسدين -ومنهم الصادين عن سبيل الله- وما حل بهم من الخزي والنكال، وأيضًا وجه أنظار وعقول المفسدين؛ ليعتبروا بما حدث للمفسدين من الأمم السابقة؛ حتى يكون رادعًا لهم عن العصيان والفساد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ومن سنة الأنبياء: بيان عاقبة المفسدين، قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام ناصحًا قومه من عاقبة الفساد، ومنه الصد عن سبيل الله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

أي: «وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يهلك بعضهم غرقًا بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟»[2]؛ «لأنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٦.

Made searchable using ScribeTools.com

والعصيان وأطاعوا»[1].

و«المراد بالمفسدين الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك، وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا الناس بإمدادهم بالضلال، وصدهم عن الهدى»[2].

وبعد أن بين لهم شعيب عاقبة الصادين المفسدين هل ارتدعوا؟

يحكي لنا القرآن العذاب الذي وقع بقوم شعيب؛ لإعراضهم عن دعوته، وتكذيبهم لرسالته، وصدهم من آمن منهم عن طريقه ومنهجه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابةٌ أظلتهم فيها شررٌ من نارٍ ولهب، ووهج عظيمٍ، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد»[3].

فهؤلاء الصادون عن سبيل الله هلكوا ولم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء، وذهبوا غير مأسوف عليهم، فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه!

فما أكثر هؤلاء الذين حكى عنهم القرآن في هذا العصر، وننتظر من الله عز وجل المنتقم -بعد الأخذ بأسباب التدافع- أن ينزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ونحن من ذلك على يقين.

فعلى الدعاة والمصلحين الاستنان بسنة الأنبياء في بيان ما حل بالمفسدين -ومنهم الصادين عن سبيل الله- من الخزي والنكال والهلاك والدمار؛ لعلهم يرتدعون خوفًا مما حل بمن سبقهم، أو يطيعون ربهم ويعودون إليه تائبين.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٤٩.

جزاء الصد عن سبيل الله وآثاره

أوضح القرآن الكريم من خلال آياته جزاء الصادين عن سبيل الله تعالى في الدنيا والآخرة، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الجزاء الدنيوي:

استحق الصادون عن سبيل الله العذاب، كما حكى الله عنهم في القرآن الكريم، ووصف العذاب بأكثر من وصف، فمرة بالأليم، وأخرى بالعظيم، وثالثة بالمهين، وغيرها من العذاب المضاعف:

ففي العذاب الأليم: قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[الأنفال: ٣٤].

وهذا تسجيل للعذاب العام عليهم، وهو عذاب عاجل في الدنيا، وينتظرهم العذاب الآجل يوم القيامة.

وفي العذاب العظيم: قال تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل: ٩٤] أي: كبير شديد، ونكر لإفادة أنه عظيم أبلغ العظم، لا يعرف مقداره.

وفي العذاب المهين: قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[المجادلة: ١٦] أي: يهينهم ويخزيهم.

وأما مضاعفة العذاب: فذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨].

ثم بين تعالى أن هذا العذاب بعد حشرهم إلى جهنم، قال سبحانه: ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

وبين سبحانه أن الذهاب إلى جهنم للتسعير في نارها، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

ومن أنواع الجزاء الدنيوي التي حكته الآيات:

١ . المصائب والكوارث.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤].

السوء: ما يسوءهم من قتلٍ، ونهبٍ، وأسرٍ، وجلاءٍ، وغير ذلك مما يسوء[١].

وأيضًا السوء: ما يؤلم، والمراد به: ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين، أو الخائنين عهودهم[٢].

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٦٩.

Made searchable using ScribeTools.com

قال ابن كثير رحمه الله: «حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا، أي: خديعةً ومكرًا لئلا تزل قدمٌ بعد ثبوتها، مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده، ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام»(١).

«واتخاذ الأيمان غشًا وخداعًا يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين، فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه، لا يمكن أن تثبت له عقيدة، ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل، ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله.

ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم، ومن صدقهم في وعدهم، ومن إخلاصهم في أيمانهم، ومن نظافتهم في معاملاتهم، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥١٥.

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين أثرًا قويًا، وطابعًا عامًا في هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز»(٢).

روى الترمذي بسنده عن سليم بن عامرٍ، قال: (**كان بين معاوية وبين أهل الروم عهدٌ، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابةٍ أو على فرسٍ، وهو يقول: الله أكبر، وفاءٌ لا غدرٌ، وإذا هو عمرو بن عبسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يحلن عهدًا، ولا يشدنه حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواءٍ) قال: فرجع معاوية بالناس**)(٣).

وإنما كره عمرو بن عبسة ذلك لأنه إذا هادنهم إلى مدةٍ وهو مقيمٌ في وطنه، فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة المضروبة كالمشروط مع المدة في أن

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، ٣/ ٨٣، رقم ٢٧٥٩، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، ٣/ ١٩٥، رقم ١٥٨٠.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٢٤٦٤.

يغزوهم فيها، فإذا سار إليهم في أيام الهدنة كان إيقاعه قبل الوقت الذي يتوقعونه فعد ذلك عمرٌو غدرًا، وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانةٌ فله أن يسير إليهم على غفلةٍ منهم»[1].

٢. الضلال والبعد عن الحق.

قرن سبحانه وتعالى بين الكفر وضلال الأعمال في كتابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

وقرن بين الصد عن سبيله وضلال الأعمال، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

قال أبو جعفرٍ رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدوا من أراد عبادته، والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق جعل الله أعمالهم ضلالًا على غير هدًى وغير رشادٍ؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، وهي على غير استقامةٍ»[2].

وانظر إلى التصوير الفني في الآية كما يصوره سيد قطب رحمه الله قال: «وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم، يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها، ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة، فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال، فإذا هي الهلاك والضياع، وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال، فكأنما هي شخوص حية أضلت وأهلكت، وتعمق المعنى وتلقي ظلاله، ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم، والقوم عن الأعمال حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك! وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير، والتي يبدو على ظاهرها الصلاح، فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان، فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه.

والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل، وقد يكون الباعث طيبًا، ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة، لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير، متصل بخط سير الحياة العريض، ولا بناموس الوجود الأصيل، فلابد من الإيمان؛ ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها، وتتأثر به في كل انفعالاتها، وحينئذٍ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس،

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٦/ ٢٥٦٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٠.

Made searchable using ScribeTools.com

ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرًا في كيان هذا الوجود، وفي قيامه بدوره، وانتهائه إلى غايته»[1].

٣. التضييق في الطيبات والمباحات.

فبسبب صد اليهود أنفسهم وغيرهم عن دين الله القويم حرم الله عليهم طيبات من المأكل كانت حلالًا لهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[النساء: ١٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «الجميع من الأطعمة كانت حلالًا لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها.

ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرةً في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]»[2].

٤. إنفاق الأموال هدرًا، وانقلابها حسرة وغلبة.

إنه لمن دواعي الهم والغم أن ينفق الإنسان ماله لهدف من الأهداف، ثم يكون الفشل بضياع المال دون تحقيق الغاية، ومما يزيد الأمر مرارة أن ينقلب هذا الإنفاق حسرة عليهم، ليس ذلك فحسب، بل تكون الهزيمة والغلبة عليهم أيضًا، بالإضافة إلى العذاب الأخروي، وهو الحشر إلى جهنم؛ ليذوقوا العذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

عن سعيد بن جبيرٍ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ٣٦] قال: نزلت في أبي سفيان بن حربٍ استأجر يوم أحدٍ ألفين من الأحابيش[3] من بني كنانة، فقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم[4].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به؛ ليصدوا المؤمنين

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٧.

(٣) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشًا، والتحبش: التجمع، وقيل: حالفوا قريشًا تحت جبلٍ يسمى حبشيًا، فسموا بذلك.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٣٠.
(٤) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي ص٩٩.

بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك (ثم تكون) نفقتهم تلك حسرة، يقول: تصير ندامةً عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون، ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله معلي كلمته، وجاعلٌ كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرةً وندامةً لمن عاش منهم ومن هلك، أما الحي فحرب ماله[1] وذهب باطلًا في غير دركٍ نفعٍ ورجع مغلوبًا مقهورًا محزونًا مسلوبًا، وأما الهالك تاب فقتل وسلب وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه»[2].

«والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العوام، بجهادٍ سلميٍ، أعم من الجهاد الحربي، وهو الدعوة إلى أديانهم، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم، والمسلمون مواتون، يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون»[3].

«إن المعركة لن تكف، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن، وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان، ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت.

والله سبحانه ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة.

إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية، وليغلبوا هم، وينتصر الحق في هذه الدنيا، وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم، فتتم الحسرة الكبرى.

إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل، ويملي له في العدوان فيقابله الحق بالكفاح والجهاد، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة، وفي هذا الاحتكاك المرير تنكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل -حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء- ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله؛ لأنهم أهل لحمل أماناته، والقيام عليها، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة»[4].

٥. كيد الصادين عن سبيل الله في

(١) أي: سلب ماله.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ١٧٠.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٥٠.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

Made searchable using ScribeTools.com

خسران وهلاك.

وهذه حقيقة حتمية، قررها رب العالمين بفضله ورحمته للمؤمنين؛ ولولا ذلك لصرف الناس وصدوا عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

و(التباب): الخسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وبه فسر مجاهد وقتادة رحمهما الله، وتب فرعون ظاهر؛ لأنه خسر ماله في الصرح وغيره، وخسر ملكه، وخسر نفسه وخلد في جهنم(١).

ولتأكيد هذه الحقيقة جاءت أدوات الحصر (ما - إلا) بمعنى: أنه لن يعدو كيد فرعون إلا أن يكون في هلاك وخسارة وضياع، دون تحقيق الهدف والغاية التي أراد من صد المؤمنين عن إيمانهم بربهم ونبيهم موسى عليه السلام.

وهذه الحقيقة الحتمية تسلية وتسرية للمؤمنين العاملين للتمكين للإسلام في واقع الحياة؛ لأن ما يفعله الطغاة والمستبدون لصرفهم عن طريق الإيمان في خسران وضياع، ولن يتحقق لهؤلاء غاية، ولن ترفع لهم راية، طالما وجد المؤمنون المستحقون لنصر الله.

ثانيًا: الجزاء الأخروي:

١. مضاعفة السيئات ومحق الحسنات.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

أي: عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

أي: ينهون الناس عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضًا، وهذا دليلٌ على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

عن عبد الله رضي الله عنه في قول الله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية أنه قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار تحت العرش، يعذبون ببعضها في الليل، وببعضها في النهار(٢).

وقد زيد لهم العذاب؛ لأنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الإيمان، فهم في الحقيقة ازدادوا كفرًا على كفرٍ، وأيضًا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥١٠.

أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[العنكبوت: ١٣].

ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري بسنده عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيءٌ**)[1].

٢. عدم المغفرة لهم إذا ماتوا على الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

قال السعدي رحمه الله: «هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[البقرة: ٢١٧].

مقيدتان لكل نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوا﴾ الخلق ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًا متمكنًا من التوبة»[2].

وما تضمنته الآية الكريمة أن من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحًا في آياتٍ أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[البقرة: ١٦١-١٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

[النساء: ١٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، ٢/ ٧٠٤، رقم ١٠١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٠.

Made searchable using ScribeTools.com

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا، وباب التوبة يظل مفتوحًا للكافر حتى يغرغر، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود، روى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**)[(١)].

٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦].

قال الرازي رحمه الله: «فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ الحسن: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ بكسر الهمزة، قال ابن جني: هذا على حذف المضاف، أي: اتخذوا ظهار إيمانهم جنةً عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين، أو جنةً عن أن يقتلهم المسلمون، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب، وتقبيح حال الإسلام.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: عذاب الآخرة»[(٢)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنةً، والأيمان جمع يمينٍ، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح، والمعنى: أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين إنهم معهم، وإنهم مخلصون في باطن الأمر ترسًا لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الظاهر أنه من (صد) المتعدية، وأن المفعول محذوفٌ، أي: فصدوا غيرهم ممن أطاعهم؛ لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد»[(٣)].

فعذاب المهانة جزاء الاستهانة بالأيمان التي اتخذوها على أنفسهم، وجزاء الاستهانة بالمنهج الإلهي وبما جاء به.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الإعراض، الباطل، الفتنة، الضلال

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٣٠٠، رقم ٦١٦٠، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، ٥/ ٤٣٨، رقم ٣٥٣٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥٣.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٤٩٧.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٥٥٣.